

# الأدب الإسلامي والفروع من المأزق<sup>(١)</sup>

بقلم / د. عبد الحميد إبراهيم

- ١ -

برز في الآونة الأخيرة مصطلح «الأدب الإسلامي» تناقلته الصحف، وتحدثت عنه المجلات، ونشرت حوله الكتب والمقالات، وعقدت حوله الكثير من الندوات والمؤتمرات، وألقيت عنه المحاضرات، وأصبح يدرس في الجامعات، ويُنظرُ له النقاد والكتاب، ويتابعون ملامحه في مختلف الأجناس الأدبية، ويلتزم به الكثير من الأباد والمبدعين، بل أصبحت له رابطة عالمية.

والأنصار والخصوم، ومن أن يتشبث كل فريق بموقفه، فهذا يعني أن الظاهرة قد بدأت تبلور في كيان، يحترمه الأنصار، ويخشاه الخصوم.

- ٢ -

وظاهرة الأدب الإسلامي - في ظني - مسوغة حضارياً وتاريخياً، وأيضاً بمنطق العدالة التي يجب أن تسود بين الجنس البشري، دون أن تخضع لاعتبارات سياسية تصدر عن مصلحة أو هوى.

وهذه المسوغات تجعل في وجود الأدب الإسلامي شيئاً طبعياً لا يحتاج إلى التساؤل، بل يصبح التساؤل عن غيابه مع توافر هذه المسوغات، أمراً وارداً.

فنحن إزاء حضارة، هي الحضارة العربية الإسلامية، لها رؤيتها الفكرية المميزة، والتي عكستها خلال تطبيقات متنوعة، على مدى المراحل التاريخية الممتدة.

وهي حضارة تنتمي إلى تراث المنطقة، التي تؤمن بإله خالق وراء هذا العالم المحسوس، والتي بشرت بشرائع ثلاث (اليهودية والنصرانية والإسلام)، كروافد متنوعة لأصل واحد، يشير إلى تلك القوة الكامنة وراء

وفي كل هذا دلالة ذات مغزى في رصد الحركة الفكرية في عالمنا العربي، تشير إلى أن «النموذج الإسلامي قد بدأ يبرز ويثير قدراً كبيراً من الاهتمام.

فلو أن - وهذا من باب الفرض ليس غير - أحداً تحدث عن الأدب الإسلامي، في ظل نفوذ «النموذج الأوروبي»، في بداية هذا القرن الميلادي، لما اهتم به أحد، ولما وجد جهازاً من أجهزة النشر تلتفت إليه، ولا جامعة من الجامعات تتحدث عنه.

وقد قوبلت هذه الظاهرة بزوبعة من الأنصار والخصوم معاً.

فالأنصار ييشرون به على أسباب أنه أدب المستقبل، الذي يعبر عن تاريخ المنطقة، ويلبور شخصيتها الثقافية، ويحفظ لها خصوصيتها في مقابل الغزو الحضاري من جميع الجهات.

أما الخصوم فيرونه حالة مرضية تدل على التعصب وضيق الأفق، وتصدر عن عدوانية متحفزة، وتخلط بين الإبداعات البشرية المتغيرة، والمواقف الدينية الثابتة.

ولا أدل على قوة ظاهرة ما، من أن يختلف حولها

(١) من كتاب «نحو رواية عربية» - تحت الطبع.

## فرضية وجود الأدب الإسلامي حقيقة تاريخية دون احتفاء بالأهواء والمصالح

ويتابعون ظواهره سواء في أثينا أو في روما أو بين قبط مصر ، ويحللون نصوصه ، ويرونه يمثل تركيبة جوهريّة في البنية الثقافية للحضارة الأوروبية ، وترتفع الآن الأصوات للإعلان عن هذه الظاهرة ، لمقاومة النزعات المادية ، ونزعات العبث . إن الكاتب اليوناني «كارنزاكي» يتحدث عن الشخصية المسيحية ، وتعكس رواياته هذه النزعة عنده ، وخاصة روايته «المسيح يصلب من جديد» ومع ذلك لا يقابل بالاعتراض أو السخرية ، قد يخالفه البعض في نزعته ، ولكنهم لا ينكرون ذلك على الموروث الثقافي في اليونان .

والإسلام ليس بدعاً في ذلك ، فمن العدالة أن ينطبق عليه مثل ما ينطبق على نظيره : اليهودية والنصرانية ، بل ربما كان هو أدخل منهما في ظاهرة الأدب الإسلامي ، فهو معجزته الكلمة بين قوم اشتهروا بالفصاحة ، وبالأدب الذي تملك عليهم كل مواهبهم الإبداعية ، ولم يترك للفنون الأخرى ، سواء كانت تشكيلية أو موسيقية . ولكن الأمر حين يتعلق بالإسلام ، فإن قواعد المنطق تختفي ، وميزان العدالة يختل ، ويجري البعض وراء أهوائهم ، ويتابعه الآخرون في منطق المسايمة والتقليد ، فينكرون ما لا يستحق الإنكار ، ويعارضون ما لا يستحق المعارضة ، ويتعجبون مما لا يستحق التعجب .

- ٣ -

وفرضية الوجود ليس منحة تمنحها للأدب الإسلامي ، بل هي حقيقة تاريخية ، تأتي مصداقاً لهذا التوقع الحضاري ، بسبب أن الظواهر تطرد على نسقها دون احتفال بالأهواء أو المصالح .

والوجود التاريخي للأدب الإسلامي ثابت ، لا يحتاج إلى أدلة ، وإلى ضرب أمثلة ؛ لأن شيوعه يجعل من

الأحداث التاريخية المختلفة .

والإسلام هو الذي منح الحضارة العربية وجودها المميز ، ووضعها في مهب التاريخ ، ومنحها صفة العالمية ولولا لظل العرب على هامش التاريخ . قد تكون لهم مبادئهم الخلقية ، التي تقوم على الفروسية والنبل ، ولكنها دون الإسلام تظل حالات فردية ، أو في نطاق قبلي لا تستطيع أن تؤثر على مجرى التاريخ .

فحضارة هذا شأنها ، ليس عجباً أن يكون لها أدبها ، الذي يعبر عن خصوصيتها ، ويمثل ميولها الإبداعية . بل العجب كل العجب ألا يكون لها هذا الأدب ، لأن غيابها يدل على تخلف الظواهر عن نسقها المطرد ، الذي اعتاده المرء حسب ما تهديه تجربته ، وحسب ما يستنتجه من وقائع التاريخ .

والعجب أن يتقبل البعض فكرة الأدب اليهودي ، أو الأدب المسيحي ، ولا يتقبل فكرة الأدب الإسلامي .

فالحديث عن الأدب اليهودي متواتر ، ولا يقابل بالتساؤل أو الاستغراب ، بل يقابل بالصمت أو الإعجاب .

وهو حديث يمتد على مدى التاريخ أو خلال «الحارة» اليهودية التي تتسكع على دروب التاريخ ، في قرطاجنة ، وفي بابل ، وفي فلسطين ، وفي أسبانيا ، وحتى في مكة والمدينة .

وهو حديث ترتفع نبرته في العصر الحديث ، حيثما تنزايد الجاليات اليهودية في أمريكا ، وحيثما يسيطرون على المال ، والنساء ، ومناطق النفوذ ، وأوراق الانتخاب ، فإنه يقابل بالتشجيع وبجوائز نوبل ، وباهتمام النقاد الذين يكشفون دون ملل عن خصائص هذا الأدب اليهودي ، وتعبيره عن ظروف جماعة خاصة ، لها رؤيتها الخاصة ، ويربطونه بنصوص في التوراة وبمخلفات التابوت ، وبتراث إسرائيل .

والأدب المسيحي يتقبلونه كذلك دون اعتراض ،

## الحقائق الحضارية والوجود التاريخي يجعلان الأدب الإسلامي أمراً مسلماً به

وهناك مسوغ آخر لا نلجأ إليه إلا في نهاية المطاف ،  
لأنه مسوغ يقوم على القياس ، والقياس في الأغلب الأعم  
يقيس الحالات الضعيفة أو غير الواضحة ، على الحالات  
القوية أو الواضحة .

ونحن إذ نلجأ إلى قياس الأدب الإسلامي على  
حالات متشابهة ، لا يعني على الإطلاق أن مسوغات  
وجود الأدب الإسلامي هي أقل من مسوغات الحالات  
الأخرى ، التي نتخذها مقياساً ، ولكننا نلجأ إلى القياس  
في نهاية المطاف ، من باب قلب المائدة فيما يقولون في لغة  
السياسية ، بمعنى : إنكم إذا كنتم تعترفون بحالات  
متشابهة ، وهي أقل في التسويغ الحضاري والوجود  
التاريخي ، فكيف لا تعترفون بوجود الأدب الإسلامي ،  
وهو يصدر عن مسوغات أقوى ، ويملك وجوداً ممتداً في  
عمق التاريخ .

إن المعارضين لفكرة الأدب الإسلامي ، لا يعارضون  
فكرة الأدب الملتمزم على العموم ، بل يرون في هذه الفكرة  
قمة المسؤولية ، التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات  
الحية ، في أنه يتحمل قدره ، ويدافع عن مبادئه حتى  
الموت ، وحينئذ يعدّ شهيداً ، تقام له التماثيل لتخليد  
ذكراه .

ومن هذا المنطلق تحدثوا عن الأدب الماركسي ، والأدب  
الوجودي ، وأدرجوهما في قائمة الأدب الملتمزم ، قد  
يخالفهما البعض ، ولكنه لا يستطيع إنكارهما ، أو النظر  
إليهما نظرة تهوين وسخرية .

ومن هذا المنطلق أيضاً ، يسمحون لأنفسهم بالحديث  
عن الأدب الأوروبي أو الأدب الإفريقي ، أو أدب  
أمريكا اللاتينية ، أو الأدب الرأسمالي ، أو الأدب

ضرب الأمثلة دلالة على ضعف القضية ، وأنها في حاجة  
إلى اقتناص بعض الشواهد من هنا وهناك ، والقضية حين  
تزيغ وتتحول إلى ظاهرة ، لا تحتاج إلى اقتناص شاهد ،  
أو افتراض دليل .

فالنزعة الإسلامية واضحة منذ نزول القرآن الكريم ،  
وتلك النزعة لا تقتصر على الشواهد التي تنطلق من  
العقيدة الإسلامية ، وتعرض مبادئها ، وتدافع عنها أو هي  
الشواهد التي عادة يرجع إليها أنصار الأدب الإسلامي ،  
بصدد التأكيد على وجوده - أقول إن هذه النزعة لا تقتصر  
على هذا ، بل إنها تلقي بظلالها على مختلف الأدباء  
الذين عاشوا في ظل الحضارة العربية الإسلامية ،  
وامتصوها كثقافة وحضارة ، تسربت في وجدانهم منذ أن  
استخدموا اللغة العربية لسان تعبير عنهم ؛ لأنها لغة  
ازدهرت في ظل القيم الإسلامية ، ولا يمكن الفصل بين  
دالاتها الفكرية ، ومفاهيم الحضارة العربية الإسلامية .

ولا أكاد أجد حضارة من الحضارات الإنسانية  
الأخرى ، تلقي بظلالها على مختلف العلوم من بلاغة  
وأدب وعلم كلام ولغة ونحو وصرف ، وغير ذلك من  
علوم نشأت في ظل الحضارة العربية الإسلامية . بل إن  
اللغة العربية نفسها ، باعتبارها أداة بشرية لنقل الفكر ،  
تختلف عن غيرها من سائر اللغات الأخرى ، فلا يمكن  
فهمها حق الفهم إلا في نطاق الدعوة الإسلامية .

فالحقائق الحضارية ، والوجود التاريخي ، يجعلان من  
ظاهرة الأدب الإسلامي أمراً مسلماً به ، لا يحتاج إلى  
التساؤل فضلاً عن الاعتراض ، لولا الأهواء البشرية ،  
والخلفيات السياسية ، التي تتدخل في التقويم ، فتطرح من  
الأسئلة دون أن تنتظر الإجابة ، لأنها ليست في حاجة إلى  
إجابة موضوعية ، بقدر ما هي في حاجة إلى التشكيك  
وإخفاء الحقائق .

## لماذا لا يرفض البعض فكرة الأدب

### الملتزم إلا إذا تعلقت بالأدب الإسلامي؟

الاشتراكي، مع أن هذه الأسماء تبلغ من العمومية حداً، لا يعبر عن لغة واحدة، ولا خصائص حضارية واحدة. ولكن الموقف يختلف مع الأدب الإسلامي، مع أن مسوغاته التاريخية والحضارية أقوى من غيره، فهم يعاملونه كحالة خاصة، وينكرون عليه وجوده، ويتنكرون حينئذ لفكرة الالتزام والمسئولية.

إن الأدب الإسلامي يمثل قمة المسئولية، فهو ينعى على الشعراء تهويماتهم في كل واد، ويدفعهم إلى الالتزام بالمبادئ الإسلامية، والاستشهاد من أجلها، وتحمل الأمانة التي لا تستطيع السموات والأرض والجبال أن تتحملها، ولكن الإنسان يحملها لأنه يعرف أن هذا قدره وتلك مسئوليته التي تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى.

إن قمة التناقض تبرز هنا حادة، فالمعارضون يعلنون من قدر الأدب الملتزم، ممثلاً في حالات أنتجتها حضارتهم، ولكنهم يرفضون فكرة الأدب الملتزم لو تعلق الأمر بالأدب الإسلامي.

إن قياس الأدب الإسلامي على مثل هذه الحالات، لا يعني قياس الأضعف على الأقوى، ولكنه يأتي من «باب أولى» لإلزام الحجة، وللتخفيف من حدة التناقض، التي تبدو سافرة، وتطيح بكل موضوعية علمية.

- ٥ -

لا تصدق مقولة «الأدب مرآة المجتمع» على شيء، بقدر ما تصدق على الأدب الإسلامي في وضعه الراهن، فهو بحق مرآة صادقة لوضعية المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث.

فالمجتمعات الإسلامية تلاقي الآن ضغطاً شديداً من الحضارة الغربية، لدرجة تصل إلى حد محققها وسحقها

وطردها من حظيرة الوجود الإنساني.

وفي مقابل هذا تلجأ المجتمعات الإسلامية، كتعبير عن غريزة الدفاع إلى ردود أفعال، تجعلها دائماً تدور في فلك الآخر، وكأنها تبحث عنده عن مبررات وجودها.

وإذا كان هذا الوضع ينبئ عن موقف ضعيف، فليس الذنب في ذلك ذنب الأدب الإسلامي، ولكنه ذنب المجتمعات الإسلامية، التي ظلت منذ عصر النهضة في مرحلة الدفاع، ومحاولة اقتناص الاعتراف من الآخر، وهي مرحلة قد طالَّت وسوف تطول إلى أبد الأبد، ما لم يحدث للمجتمعات الإسلامية نقلة أساسية، تنقلها من مراحل تسوّل الاعتراف من الآخر، إلى مرحلة إثبات الذات التي تفرض على الآخر وجودها.

ومرحلة إثبات الذات تقتضي مواصفات جديدة، تصنع فيها المجتمعات الإسلامية حضارتها المعاصرة بنفسها، وتحل إشكالاتها من وحي تاريخها، وتقدم تفسيراتها الخاصة للظواهر الاجتماعية والحضارية، حينئذ يأتي الأدب ليعكس هذه الحالة، وليكون مرآة صادقة للمجتمعات الإسلامية في طورها الجديد، وحتماً سيكون صورة لأدب واثق من نفسه، لا يحاول أن يستجدي مبررات وجوده من آخر ينكرها عليها.

إن هذه الدراسة تصف أكثر مما تفترض، وترصد أكثر مما تخرع، ومن هنا فإنها تستطلق من وضعية الأدب الإسلامي في ظروفه الراهنة، وستحاول أن تشير إلى بعض سماته، التي تتداخل فيما بينها لتقدم حالة لأدب لا يزال يبحث عنه نفسه.

- ٦ -

وأولى هذه السمات: تتمثل في غلبة الماضي على دعاة الأدب الإسلامي، فهم حين يكتبون يستشهدون بنماذج من الأدب القديم كدليل على وجود الأدب الإسلامي، دون أن يفتنوا إلى أن إنكار الأدب

الإسلامي ، لا يتوجه إلى الماضي بقدر ما يتوجه إلى الحاضر .

إن الحضارة العربية الإسلامية ، قد أثبتت وجودها قديماً ، ولم تعد في حاجة إلى دليل ، وقد عبرت عن وجودها في نماذج أدبية ، تعكس لحظتها التاريخية الخاصة ، ولا يمكن فرض هذه اللحظة على الإنسان المعاصر ، حقاً قد ينطلق منها كثرات ، لا لكي يقف عنده ويتلوه ، بل لكي يتمثله ويضيف إليه .

وهم حين يبدعون أدباً ينطلقون من التاريخ ، لا لكي يؤلولوه أو يفسروه ، بل لكي يعيدوه كما كان الأجداد يعيشونه ، وهنا تطرأ نظرة القداسة على موقفهم من التاريخ ، وكأن أحداث الأجداد وهي طقوس دينية ، لا ينبغي الخروج عليها ، مما يسيء إلى فكرة الإبداع داخل الأديب ، ويحرّمها من الانطلاق ، والبحث عن التفرد والخصوصية .

#### - ٧ -

والسمة الثانية تلخص في أن دعاة الأدب الإسلامي يصدرون في التعبير عن أنفسهم من منطقة رد الفعل ، الذي يجعلهم دائماً في مرحلة الدفاع ، ويربطون مصيرهم برؤية الآخرين ، وهذا يفسر السبب في أن الهجوم على الحضارة الغربية يمثل تياراً عاماً عندهم ، دون أن يوجهوا طاقاتهم إلى بناء حضارة عربية معاصرة ، فزاهم ينقدون المجتمعات الغربية دون أن يهتموا بتحليل مجتمعاتهم المعاصرة ، ونزاهم ينقدون العبث والغربة والمادية ، دون أن يحلّلوا مثل هذه المصطلحات من منظور إسلامي ، ونزاهم يهاجمون النماذج الأدبية الغربية ، دون أن يبذلوا الجهد لتمهيد الطريق أمام نماذج معاصرة تعبر عن هموم الإنسان المسلم إزاء التحديات الراهنة . وباختصار فهم لا يستطيعون أن يخرجوا عن نطاق الآخر ، قد ينقدونه أو يهاجمونه ، ولكنهم يدرسون

واقعهم من خلاله وقياساً إليه ، ويتحول هذا الآخر إلى ما يشبه الظلال التي تنعكس على كهف أفلاطون ، وتكون صورة دنيا العالم المثل والكمال .

#### - ٨ -

والسمة الثالثة تتمثل في المباشرة ، التي تتخذ مظاهر عديدة ، قد تكون في السرد ، أو استخدام العظة ، أو الأسلوب المشحون بأدوات التحريض والتحذير والإغراء ، أو غير ذلك من مظاهر تدل فيما بينها على اختلاط وظيفة الأجناس الأدبية عند دعاة الأدب الإسلامي .

كان الأدب الإسلامي بمفهومه القديم ، يعبر عن نفسه خلال الشعر والخطبة والرسالة ، وكانت هذه الأجناس الأدبية تسمح بمساحة كبيرة من المباشرة ، ووضع النقاط على الحروف ، والتنصيص على الغرض ، والدعوة إليه ، والتكرار ، واستخدام الأساليب التي تقوم على الإغراء أو التحذير أو النداء ، والإكثار من الألفاظ المجملجة ، التي تفرغ الآذان ، وتجعل المستمع يلوي عنقه ويلتفت .

ولكن الأمر قد اختلف مع الإنسان المعاصر ، فقد تدخلت في الصورة أجناس أدبية جديدة ، مثل الفن القصصي ، الذي يند بطبيعته عن المباشرة والتنصيص ، ويتخذ سياقاً فنياً ، يوحى ولا ينص ، ويمثل الموقف ولا يسرده ، ويشارك القارئ ولا يعرض عليه خلاصة تجارية ويشير إلى الحل ولا يفرضه ، ويهدف إلى لغة هادئة تكون سبيلاً إلى الغاية ، وليست هي الهدف الذي يقف عنده الكاتب ، ويجملها ويزوقها ، وقد ينشغل بها عن المقصود النهائي .

ولكن يبدو أن الميل إلى القديم يفرض نفسه عند دعاة الأدب الإسلامي ، في العصر الحديث ، فيستخدمون الأجناس الأدبية الجديدة بروح قديمة ، ويخلطون بين الوظائف الفنية لكل جنس ، فتجد الرواية مثلاً ، تتحول

عندهم إلى مجموعة مقالات أو خطب أو رسائل، تقدم كل شيء، وتنص على كل شيء، وتعرف القارئ بكل شيء، ولا تترك له مساحة للاكتشاف، يحس فيها بلذّة المشاركة والتفاعل مع الكاتب.

إن كل ما يأخذه أصحاب الأدب الإسلامي من هذه الأجناس الجديدة، هو مجرد الإطار الخارجي، الذي يقوم على الأسلوب القصصي المشوق، أما المضامين، وأما طريقة عرض هذه المضامين، فإنها تظل منتمية إلى القديم.

## - ٩ -

أما السمة الرابعة فهي تلخص في غلبة المضمون على الشكل، فأنصار الأدب الإسلامي يهتمون بالمجاهرة بالأفكار، ولا يتوقفون كثيراً عند طريقة العرض. وقد يتحمسون لعمل يردد أفكارهم، ويجاهر بأرائهم، وقد يكون هذا العمل أقرب إلى المنشورات والبيانات، مباشراً، يخلو من الابتكار والخيال.



نجيب الكيلاني



توفيق الحكيم

وفي الوقت نفسه قد لا يلتفتون إلى عمل آخر هادئ، يصل إلى النتيجة التي يريدون، ودون أن يردد الشعارات، ويجاهر بالتصريحات، وإلقاء الخطب، ورصف الكلمات.

توفيق الحكيم في كثير من إبداعاته، قد يصل إلى النتيجة التي يريد بها الأدب الإسلامي، دون أن يردد

الشعارات نفسها، أو أن يثقل عمله بالتصريحات، فهو، مثلاً، في مسرحيته «أهل الكهف»، يصل إلى فكرة البعث التي تعطي للحياة معنى، وتجعل المرء يحس بالامتداد، فيفتح قلبه، ويتسع صدره كما كان الحال مع مشيلينا، ولولا هذه الفكرة لأصحبت الحياة خواء مادياً، تدفع بصاحبها إلى الأنانية، وقد توقعه في هوة العيب والضياع، كما حدث مع مرنوشن، الذي لم يفتح قلبه للحياة الأخرى، فانهى الأمر إلى الضياع.

ولكن أصحاب الأدب الإسلامي لا يقفون كثيراً عند توفيق الحكيم، ولا يتحمسون له بقدر ما يتحمسون لنجيب الكيلاني، لأنه يجاهر بأرائهم، ويردد شعاراتهم، ويغلب المضمون على الشكل.

ونتيجة لهذا، اهتم أيضاً أنصار الأدب الإسلامي بصفة «الإسلامية»، أكثر من اهتمامهم بصفة «العربية»، لأن مصطلح «الإسلامية» يعني المضامين التي يحملها الإسلام إلى كل الأصقاع، وبكل اللغات، أما مصطلح «العربية»، فهو يعني صياغة هذه المضامين باللغة العربية، بكل ما يقتضيه ذلك في سياقات فنية.

نحن أساساً في مجال الأدب، ولسنا في مجال الأفكار، والأدب لا يستغني عن الشكل ولا عن الصياغة، وإلا تحول إلى أفكار مجردة، تدرس في ميدان آخر، وتهتم بها علوم أخرى.

إن التركيز على صفة الإسلامية يعني غلبة المضمون على الشكل، وإن السياق الأدبي يقتضي أن يكون المصطلح هو «الأدب العربي الإسلامي».

وليست المسألة لفظية تقف عند حد إضافة كلمة لغوية، بل هي تعني نقل المسألة برمتها إلى مجال الأدب بعيداً عن مجال السياسة والفكر. وتعني أيضاً توجيه الأفكار إلى الصياغة الأدبية للمادة المطروحة في كتب العلماء والفقهاء، وقد نجد في النهاية أن الكثير مما كان

يتحمس له أنصار الأدب الإسلامي، يبدو، بالمقاييس الفنية، مباشراً هابطاً، لا يستحق كثرة التهليل والتصفيق. وكل هذا سيثمر في النهاية خصوصية للأدب الإسلامي، تختلف باختلاف بيئاته المتعددة، فسيكون هناك أدب أردني إسلامي، وأدب إفريقي إسلامي، وأدب هندي إسلامي، وأدب إنجليزي إسلامي، وسيدخل في التقسيم عنصر اللغة بكل ما تحمله من إمكانيات فنية، وستتحول المضامين الإسلامية إلى متنوعات ثرية وجميلة، تصب كلها على قرار واحد رئيس.

#### - ١٠ -

وإذا التمسنا مثلاً دالاً على الوضعية الراهنة للأدب الإسلامي، فإننا نجد في رواية نجيب الكيلاني «رحلة إلى الله»، فهي تمثل الظواهر السابقة وتزيد.

الرواية تقدم قصة الإخوان المسلمين الدامية، كما يقول المؤلف على الغلاف، والرحلة إلى الله تعني الاستشهاد من أجل المبدأ، وقد كان المؤلف واحداً من هؤلاء الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا في فترة الخمسينيات، فهو ينقل من واقع تجربته.

أحداث الرواية قليلة، هي عبارة عن علاقة بين نبيلة وعطوة، أو بين نبيلة وسالم، وبعض الصلات التي تقوم على القرابة، ولكن المؤلف يطر هذه الأحداث، ويكدر في الرواية كل ما تختزنه الذاكرة عن تلك الفترة، محاولة اغتيال عبد الناصر، قلب نظام الحكم، قضية منشورات سوريا، قضية التمويل، التحقيق مع عيد النجار، وغير ذلك من أمثلة، كان يغني فيها المثال أو المثالان، ولكن الرغبة في التطويل، والنقل من الواقع، والحرص على التسجيل، جعل المؤلف ينساق مع الأمثلة، ويمتدح من الذكريات، ويسرد الأحداث، حتى وصلت الرواية إلى ٣٢٥ صفحة مكتوبة بالأحرف الصغيرة.

وكان يمكن للرواية أن تنتهي عند ص ٢٩٤، حين

تحول صقر إلى رمز، وتكون حينئذ نهاية ذات مغزى، تعني الاستمرارية وبقاء الرسالة، وتتيح للقارئ أن يستنتج بقية التفاصيل، ولكن الرغبة في الذكريات جعلت المؤلف يتابع مصير الشخصيات الأخرى، ويتابع سفريات نبيلة من بلد إلى بلد، دون رابطة سوى أن هذه الأحداث قد وقعت، وأن بطلها شخص واحد هو نبيلة.

ولم يكن المؤلف حيادياً في عرضه للأحداث، فهو ينحاز إلى موقف الإخوان المسلمين، ويصرح في ثنايا الرواية بأن التصالح لا يأتي بثمرة مع الظالمين الطغاة.

وقد تعمدت هذا الوصف الفاقع «الظالمين الطغاة»، لكي أكون قريباً من روح المؤلف في روايته، فالألفاظ تتوارد على لسانه لوصف الفريق المخالف، بأنهم كلاب وخنازير وسفلة ومتوحشون وحيوانات قذرة، وغير ذلك من مفردات تنثال من لسان المؤلف، وتشكل قاموس الرواية.

وليس عيباً أن يكون المؤلف منحازاً إلى موضوعه، فنحن إزاء عملي إبداعي، يعبر عن حالة شعورية خاصة، يحاول صاحبها أن ينقلها إلى القارئ، وأن يجعله يحس مثل ما يحس به، وأن يتمثل موقفه.

ولكن العيب من أن يأتي الانحياز على حساب الرؤية الفنية، وعلى حساب مقتضيات العمل الروائي.

إن نقطة الانطلاق في الفن الروائي بمفهومه التقليدي، إنما تقوم على الإيهام بالواقع أو الواقعية، وإنما ينتقي منها ويوجهها حسب سياق العمل الفني في واقعه الجديد.

وحين أقول «حسب سياق العمل الفني» فإن هذا يضيف بعداً جديداً يكمل البعد السابق، فالكتاب المبدع لا ينساق، كما قلت، مع الأحداث، وإنما ينتقي منها ويوجهها، وتلك مرحلة أولى يليها مرحلة ثانية، يتناسى فيها المؤلف نفسه، ويخضع لسياق العمل الفني، ويجعل هذا السياق هو الذي يسيره في منطق جديد وملائم،

الرئيسة، وأن تشرع مواقفهم إزاء قضايا مثل العدالة والحرية والمساواة.

١٠ - ٢

فرت نبيلة إلى الكويت، وتركت خطاباً لأهلها تفضح فيه مواقف الطغاة، وتقول: «قارة موحشة، مليئة بالغابات والضواري والعذاب، رأيت فيها البشر يعاملون معاملة أبشع من معاملة الحيوانات، ورأيت الحياة لعبة في أيدي الصغار الكبار... رأيت أقواماً صابرين نساء، يلاقون من العنت والعذاب ما لا يحتمله بشر أو حيوان... ورأيت عبيداً بأيديهم السياط وأدوات القهر والظلم، وهم يحيون ويميتون، وكأنهم حاشا لله، قد اغتصبوا الحق الإلهي في التحكم بأعمار البشر» (ص ٢١٥).

وهذا الجزء من الخطاب يمكن أن يلخص مغزى الرواية كلها، وهذا يعني أن الرواية مكتظة بالتفاصيل وأن قليلها يغني عن كثيرها، وأن المؤلف لم يستطع أن يوزع الوظيفة الفنية، بحيث تشمل بقية الأجزاء، ويجعل لكل جزء ضرورته في البناء الفني.

### للأدب الإسلامي بصمات حضارية داخل السياق الإنساني العام

ووسيلة «الرسائل» وسيلة سردية، عرفها الفن الروائي وهو يخطو خطواته الأولى في رواية «زينب»، وهي تسمح للمؤلف بأن يتخلى عن الموقف والحدث، وأن ينساق مع المباشرة، وأن تتحول روايته إلى مجموعة من المقالات، يسرد فيها ذكرياته، وينفس عن عذاباته.

والخلاصة أن رواية «رحلة إلى الله» تجسد، سواء في مضمونها أو في شكلها، المأزق الذي وقع منه الأدب الإسلامي، وهو مأزق يجابهنا بالحاح، وفي أشكال عديدة سواء بدأنا في تشخيص الحالة، أو انتهينا إلى

يختلف عن منطق التاريخ أو منطق الواقع. ودخل هذا السياق نفهم فكرة الإيهام بالواقع، أي إن الرواية تتحول إلى واقع جديد، يشير إلى الواقع الحقيقي ويوهم به، والواقع الجديد في هذه الحالة له مقتضياته وشرائطه، التي تختلف في أحيان كثيرة عن الواقع الحقيقي. إن واقع الرواية الفني هو شيء آخر غير الواقع الحقيقي، وأن الأحداث الفنية تختلف عن الأحداث التاريخية، وليس كل ما يحدث في الواقع، أو يحدث به التاريخ، يمكن أن تصوره الرواية، بل لا بد أن تكون له مسوغاته داخل العمل الفني، وأن يخضع لمنطق الرواية الخاص.

ونجيب الكيلاني يعي أسرار العمل الروائي، من التشويق، وتصوير الشخصية، وتجسيد الموقف، وتوظيف الحوار، واستقلال الطبيعة كخلفية، وتحليل النفسانيات، واستخدام اللغة السلسة، ثم توظيف الشعر بطريقة مبررة فنياً. ولكن انحيازه إلى الموضوع جعله يميل إلى النقل من الواقع، على حساب الإيهام بالواقع.

١٠ - ١

والرواية تقع في دائرة رد الفعل، فالمؤلف لا يستطيع أن يتحكم في مشاعره إزاء الظلم الذي لاقاه في المعتقل، والناس عنده غمطان:

نمط للخير ويمثله جماعة الإخوان المسلمين، ونمط للشر ويمثله الطغاة، وبركاته تتوالى على أهل الخير، ولعناته تنصب على فريق الشر، وينتهي الصراع بين الخطين كعادة الملاحم الشعبية بانتصار الخير وأقول الشر.

ينساق المؤلف مع مشاعره خلال أسلوب انتقامي، يستخدم مفردات عن الغضب والحقد والانتقام، تجعله يقف دائماً في دائرة الغيظ التي تقوم على رد الفعل، دون رؤية إنسانية عامة، ككل المشاعر البشرية بطريقة هادئة.

وقد كان لهذا صداه على محتوى الرواية، فلم تستطع أن تتجاوز مشاعر الانتقام. وأن تهتم بقضايا الإخوان

الكشف عن تطبيقاتها (\*) .

- ١١ -

ولا سبيل إلى الخروج من هذا المأزق إلا باقتحام جريء، يتمثل في تعريف جديد للأدب الإسلامي، يجعله تعبيراً عن روح الحضارة العربية الإسلامية في صياغة أدبية. وهو في هذا التعريف ينطلق من النص، دون الدوران حوله في عملية تفتيش عن نوايا صاحبه، أو محاكمته على أشياء هي خارج النص.

وحتى نقرب خطوة من هذا التعريف نفرق بين مصطلحات أربعة هي:

أدب الدعوة الإسلامية - الأدب الذي هو ضد الإسلام - الأدب الإسلامي - الأدب الذي هو في الإسلام . أو بتعبير أكثر اختصاراً : أدب الإسلام - أدب ضد الإسلام - أدب إسلامي - أدب في الإسلام .

أما أدب الدعوة الإسلامية ( أدب للإسلام ) ، فهو الأدب الذي يدافع عن العقيدة الإسلامية، ويقدمها للغير، ويدعوه إلى اعتناقها .

ومن الطبيعي في هذه الحالة أن الداعية يجب أن يكون مسلماً متحمساً لإسلامه، وأن تمتلئ كلماته بهذه الحماسة، وأن يمزج مضامينه بعاطفة إسلامية، وتصبح كلماته بشيراً ونذيراً، تبشر الموافق وتندر المخالف .

وقد امتد هذا الأدب منذ الدعوة الإسلامية، وعبر العصور التالية، وحتى شعر محمد التهامي وروايات نجيب الكيلاني .

أما الأدب الذي هو ضد الإسلام، فإنه يقف على الطرف المقابل، يناقض أدب الدعوة، ويتصارع معه، ويلجأ إلى الوسائل التي تؤيد موقفه وتهدم موقف الآخر، لا تهمة الحقيقة الفنية بقدر ما يهجم الانتصار على خصمه والتهوين من أدبه .

وقد امتد هذا الأدب منذ أن كان للدعوة الإسلامية

أعداء، وتواتر في أدب الزنادقة والملحدين، وحتى الأدب الماركسي والأدب الوجودي، وغير ذلك من مذاهب تنكر أساساً فكرة الدين .

أما الأدب الإسلامي فهو الأدب الذي يعبر عن الحضارة العربية الإسلامية كحضارة تخاطب التيار الإنساني العام، وتفترض أن البشر جميعاً، مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم، يحملون قاسماً مشتركاً، يلتقون على أرضه، ويتخاطبون بلغة واحدة، تعلو فوق الحروف والقواعد، ويفهمها الجميع دون حروف وقواعد .

حقاً إن الأدب الإسلامي يحمل بصمات حضارته، ولكنها بصمات توضع في مكانها داخل التيار الإنساني العام .

وهو بهذه الصفة يخاطب المسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي، وقد يقوله المسلم والعربي، وقد نجد ملامحه عند غير المسلم والعربي، تماماً مثل الفن الإسلامي « Islamic Art »، الذي أصبح تياراً مميزاً، يمتد عبر التاريخ، ويتحدد في سمات خاصة، قد نجدها في العمارة القوطية أو الباروكية، وقد نجدها عند بول كلي أو عند غيره من الفنانين الذين استوحوا الفنون الإسلامية .

والأدب الإسلامي بهذا المفهوم الحضاري الواسع، لا يركز على الأشخاص ولكنه يركز على النص، لا يهتم بالنتج، ولكنه يهتم بالمنتج، ولا يفتش عن دوافع ولكنه يفتش عن السمات الحضارية . ومن هذه الرؤية فإن بعض أعمال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويحيى حقي، تدرج في مصطلح الأدب الإسلامي . بل إن بعض أعمال جوته ودانتي يمكن أن تدخل في هذا المفهوم الحضاري .

والأدب الإسلامي بهذه الصفة يتناقض مع مصطلح «أدب ضد الإسلام» لأن الأخير يرفض الأدب الإسلامي ويهاجمه، فهو أساساً يهاجم الدعوة الإسلامية ويرفض كل ما يتعلق بها . وهو في هذه الزاوية يلتقي في أغراضه

ويقولون ما لا يفعلون، ما لم يتخذوا الموقف المضاد، ويتحولوا إلى زنادقة وملاحدة، ويهاجموا الدعوة الإسلامية، حينئذ يحاسبون على موقفهم، ويقام عليهم حد الردة؛ لأنه خرجوا من منطقة الفن للفن إلى منطقة الالتزام.

وإذا كان الإسلام، ومن موقف حضاري واسع النظرة، قد أفسح صدره لهؤلاء الذين وجدوا على أرضه، وخضعوا لشیطان الفن، ولم يصدروا عن مواقف مضادة - فإنه، من باب أولى، يفسح صدره لأصحاب الأدب الإسلامي، الذين يعكسون خصائص الإسلام كحضارة، ويخاطبون المسلم وغير المسلم.

وبعد... فقد كان «المأزق» نتيجة لهذا الموقف الضيق، الذي دار فيه أنصار الأدب الإسلامي حول مجموعة من المضامين، يرددونها كأنها الطقوس التعبدية. ولا خروج من هذا المأزق إلا بهذا التعريف الجديد، الذي يركز على نظرة حضارية شاملة من ناحية، وينطلق من النص الأدبي، بكل ما يحمله من القيم الأدبية، التي اصطفتها اللغة العربية، خلال مسيرتها الطويلة مع العباقرة من أبنائها المبدعين، من ناحية أخرى.

والأدب الإسلامي بهذا الخروج، سيجد نفسه في مهب التيارات العالمية، يحاورها وتحاوره، ويأخذ منها وتأخذ منه، وحينئذ فقط سيكون مؤهلاً لأن يعبر عن الحضارة العربية الإسلامية، التي لم تقف أبداً وراء أسوار الزمان، ولا جدران المكان.

(\*) يبدو أن الكاتب لم يقرأ لنجيب الكيلاني، الذي بلغت رواياته زهاء أربعين رواية متنوعة الموضوع والتشكيل، ثم إن هناك نماذج أخرى عديدة متفوقة فنياً في الرواية وغيرها من الأجناس الأدبية لأدباء آخرين. (التحرير).

وأهدافه مع هؤلاء الذين ينكرون وجود الأدب الإسلامي برمته، حقاً هو لا ينكر وجوده ولكنه يهاجم هذا الوجود، والمحصلة في النهاية سواء، فالإنكار أو الهجوم يؤديان إلى نتائج مشتركة.

ولكن الأدب الإسلامي لا يتناقض مع أدب الدعوة الإسلامية، حقاً، هو غير أدب الدعوة، ولكنه لا يناقضه في الهدف الأخير. وكثير من الدعاة الإسلاميين، يتقلون بأدبهم إلى مجال إنساني، يخاطبون فيه المسلم وغير المسلم. محمد إقبال مثلاً كاتب إسلامي لم يقف عند حد الدعوة المباشرة، بل انتقل بأدبه إلى نطاق إنساني، يخاطب المسلم وغير المسلم، ولكن دون أن يفقد خصوصية الحضارة الإسلامية.

أما الأدب في الإسلام، فهو ذلك الأدب الذي يعيش أصحابه في كنف الإسلام، ولكنهم يلتزمون جانب الفن للفن، هو لا يعارض الإسلام، ولا يدافع عن الإسلام، لأنه يعمل أساساً خارج دائرة الإسلام، هو يلتزم بالفن أكثر مما يلتزم بالمضمون وقد استوحيت هذه التسمية من ابن تيمية، فقد سئل عن فلاسفة الإسلام، فأجاب إنه لا يوجد فلاسفة في الإسلام، فليس للإسلام فلاسفة، ولكن يوجد الفلاسفة الذين هم في الإسلام، وقياساً على هذا فإن أصحاب نظرية الفن للفن لا يمثلون الأدب الإسلامي، ولكن يمثلون الأدب الذي في الإسلام.

وقد امتد هذا التيار خلال العصور الأدبية المتعاقبة، فمنذ العصور الأولى للإسلام، كان يوجد شعراء يتغزلون ويتهاجون ويقولون في الخمر، ولا يصدرون عن مبادئ إسلامية ولا عن مواقف ضد الإسلام، كانوا فقط يخضعون لشیطان الشعر، أو لنكد الشعر علي حد تعبير الأصمعي.

ولم يتعرض لهم أحد، أو يقيم عليهم حد الزنا أو الشرب أو القذف؛ لأنهم شعراء في كل واد يهيمنون،